مساهمة الجمعيات المحلية في تنمية الواحات والمحافظة على التنوع البيئي في تافلالت -واحة الجرف نموذجا

الحسن المراني و.محمد كرومي
جمعية محاربة التصحر للمحافظة على البيئة الجرف الرشيدية

ملخص

وصفت المصادر العربية والأجنبية القديمة سجلماسة بأنها تتوسط سهلا امتاز بالخصب والماء الوفير. فإذا كان عنصر الماء وتجارة القوافل أساس استمرار الحياة بالواحة سابقا، فإنه في الوقت الحالي أصبح الوضع العام هو الندرة المائية، وتحول مورد القوافل التجارية إلى مورد يعتمد على القوافل السياحية والهجرة. وصارت الواحات تواجه مخاطر الجفاف وزحف الرمال وتستهلك أكثر فتجاوزت قدرة مواردها على التجدد.

ورغم البرامج الكبيرة، التي تنجزها الجهات المختلفة، فإن التحولات التي تعرفها الواحات تؤكد الحاجةاوضع تصور شمولي لمشاكلها، لاستصلاح الكثير من النظم الفاعلة بها. لمواجة الإكراهات والمعيقات التي تعمل على تدهورها وعدم تطورها. كما أن هذه المناطق تعيش ضعفا في التدبير و إفراطا في الاستغلال وأصبح ما يجري في هذه المجالات يتم دون وصول الإمكانيات و البحوث والدراسات المختلفة إلى وضع برامج متكاملة وإيجاد الحلول الملائمة. إن تراكم المشاكل في هذا الوسط يجعل الخوف على مصير الواحة قويا ويصبح الاهتمام بهذه المجالات من القضايا الوطنية الكبرى.

في السنوات الأخيرة بدأ الاهتمام لدى الأوساط المختلفة عامة والمجتمع المدني بصفة خاصة بواحات الجنوب الشرقي، نظرا لتفاقم المخاطر البيئية في هذه المجالات. وتأتي مشاركة الجمعيات المحلية سعيا لبقاء هذا المحيط صالحا للحياة واستمرار الاستقرار فيه من ضمن هذا التصور.

إن أزمة الواحات بناحية تافيلالت متعددة الأبعاد والمظاهر، فهي رغم التنوع في الموارد والإمكانيات البشرية والمادية، تعرف تدهورا متنوعا ومتعدد الأوجه.كما تجدر الإشارة إلى أن هذه المجالات غنية ويمكن أن تؤهل المنطقة لتحقيق تنمية مستدامة، لكن التوازنات المجالية تعرف اختلالات وإكراهات تعيق مسيرتها التنموية وتفرض واقعا معيشيا فقيرا. ما هي معيقات هذا النمو ؟ وكيف يمكن أن تساهم الجمعيات المحلية في تنمية المنطقة والمحافظة على التنوع البيئي بها، حتى تصل المنطقة إلى حلول ناجعة وعمل متكامل يضمن التطور المتوازن ومواصلة الاستقرار للساكنة ؟.

فإذا وصفت المصادر العربية والأجنبية[24] القديمة سجلماسة بأنها تتوسط سهلا امتاز بالخصب والماء الوفير. كان عنصر الماء وتجارة القوافل أساس استمرار الحياة بالواحة سابقا، فإنه في الوقت الحالي أصبح الوضع العام الندرة المائية، وتحول مورد القوافل التجارية إلى مورد يعتمد على القوافل السياحية والهجرة.سكما أصبح الجفاف في هذه المنطقة هو الوضعية العادية والتساقطات هي الاستثناءس[25]. وصارت الواحات تواجه مخاطر الجفاف وزحف الرمال وتستهلك أكثر فتجاوزت قدرة مواردها على التجدد.

ورغم البرامج الكبيرة، التي تنجزها الجهات المختلفة، وكذا جهود و مبادرات القطاع الخاص والقطاع الحكومي المتعددة فإن التحولات التي تعرفها الواحات تؤكد عدم وضع تصور شمولي لمشاكلها، وإلى تراجع الكثير من النظم الواحية الفاعلة بها، مما جعل استمرار الواحات يواجه إكراهات ومعيقات تعمل على تدهورها وعدم تطورها. كما أن هذه المناطق تعيش ضعفا في التدبير و إفراطا في الاستغلال وأصبح ما يجري في هذه المجالات يتم دون وصول الإمكانيات و البحوث والدراسات المختلفة إلى وضع برامج متكاملة وإيجاد الحلول الملائمة. إن تراكم المشاكل في هذا الوسط يجعل الخوف على مصير الواحة قويا ويصبح الاهتمام بهذه المجالات من القضايا الوطنية الكبرى.

في السنوات الأخيرة بدأ الاهتمام لدى الأوساط المختلفة عامة والمجتمع المدني بصفة خاصة بواحات الجنوب الشرقي، نظرا لتفاقم المخاطر البيئية في هذه المجالات. وتأتي مشاركة الجمعيات المحلية سعيا لبقاء هذا المحيط صالحا للحياة واستمرار الاستقرار فيه

[24] Intervention de Mr Pietro Laureano .Ipogea- Italie Foggara au MarocÂ: renforcer le réseau locale. Xaluca Erfoud 23-25 septembre 2004.
[25] محمد أزها.الإنسان والبيئة في الواحات السهبية القاحلة، واحة ميسور نموذجا (المغرب الشرقي) المجال والمجتمع سلسلة الندوات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس. العدد 6 .1993. ص 137.

من ضمن هذا التصور. ما هي معيقات هذا النمو وكيف يمكن أن تساهم الجمعيات المحلية في تنمية المنطقة والمحافظة على التنوع البيئي بها، حتى تصل المنطقة إلى حلول ناجعة و عمل متكامل يضمن التطور المتوازن و مواصلة الاستقرار للساكنة ؟

مظاهر أزمة الواحات بناحية تافيلالت

تعتبر مشكلات واحة تافلالت متعددة الأبعاد والأوجه، فهي في غناها في التنوع و الموارد والإمكانيات البشرية والمادية، تعرف تدهورا متنوعا. رغم أن هذه المجالات يمكن أن تؤهل المنطقة لتحقيق تنمية مستدامة، فالتوازنات المجالية تعرف اختلالات وإكراهات تعيق مسيرتها التنموية، وتفرض واقعا معيشيا فقيرا. إضافة إلى ذلك فهي تنتمي إلى ما يعرف بالمغرب الغير النافع، و المناطق التي تساهم بشكل ضعيف في الاقتصاد الوطني. فإذا كان التصحر وضعف مردودية الغطاء النباتي والحيواني من سمات مشاكل الواحة، فإن بعدها عن المركز الاقتصادي يزيد من تخلفها، كما أن هذه المجالات تضم واحات تعتبر مهمشة في الهمش، وغير نافعة في الغير النافع، ومعزولة في المعزول، مما دفع بعقول هذه الواحات وأطرها وطاقات ها من أبنائها واستثماراتها أن تهجرها زهجرة ذات الاتجاه الوحيد[26]

أزمة الواحات من الدواعي الموضوعية لتأسيس العمل الجمعوي

تعتبر مشاكل واحات تافيلالت من الدواعي الموضوعية لظهور العمل الجمعوي وهي أيضا التحديات الكبرى التي يواجهها.ونوجز هذه الإكراهات في الأمية والفقر والتدهور البيئي والترمل والجفاف، وتراجع مردودية النخيل التاريخية، والهجرة، مع ضعف المشاركة والتشارك بصفة عامة وفي أوساط العنصر النسوي بصفة خاصة...

وتعتبر هذه الوضعية نتاج تغيرات طبيعية وتحولات عميقة عرفتها المنطقة من نمو ديمغرافي وتغير ثاقافي وتهميش.وكذا المخططات الأحادية والسياسات الغير شمولية واستغلال وإخلال بقواعد التضامن التقليدي، وظهور النزعة الفردية للتملك الشرس للموارد خاصة المورد المائي. أيضا هذه التحولات حولت المال الهجري، وأصبحت الهجرة التي كانت تساهم في الاستقرار وسيلة للهروب والقطيعة عن هذه المناطق.

إمكانيات ومؤهلات المنطقة

إذا كانت الإمكانيات ينظر إليها من حيث الغنى و التنوع في الموارد فإن المنطقة تتوفر على مؤهلات متعدد وإمكانيات متنوعة أخرى يمكن أن تؤسس لتنمية مستديمة في جوانب عدة :

فالإندماج وذوبان الأجناس في الواحة وقوة التثبت العميق بهذه المجالات يخلق رغبة قوية في التحول الإيجابي والمشاركة الواعية ويدفع إلى توظيف الممتلكات المادية والخبرة والتجربة الشخصية والجماعية، وإلى تفعيل كل التنظيمات والأعراف والقوانين التقليدية وتوحيدها للمحافظة على الواحة كملك جماعي، والعمل لتطويرها تطورا متوازنا.كما أن ساكنة هده الأوساط تتوفر على أطر ذات كفاءة عالية وتخصصات متعددة يمكن الاستفادة منها في مشاريع وبرامج مختلفة.

أما إمكانيات القطاع الحكومي فله من الإمكانيات الشيء الكثير نذكر منها مؤسساته وقطاعاته الفاعلة في هذه المناطق وما تتوفر عليه من أطر متخصصة وبرامج ووسائل متعددة ورصيد وأرشيف معرفي مهم كما له من التصاميم والمخططات التوجيهية والعملية ما يجعله بنكا للمعومات التي تحتاجها كل انطلاقة تنموية مرتكزة على الأسس العلمية والخبرة الميدانية. ينضاف إلى كل هذا منجزاتها لتقوية البنية التحتية للواحات كما لا ننسى علاقات هذه المؤسسات الوطنية والدولية..

ومما يسهل توظيف هذه الإمكانيات قوانين الانفتاح على المحيط وعقد الشراكات كل هذا الرصيد ينضاف إلى ما تخر به المنطقة من ثروات طبيعية وتنوع بيولوجي ومعدني ومائي وما ترثه واحة تافيلالت الكبرى من تنوع ثقافي وتاريخي وحضاري، وما يتجلى في الغنى العمراني والفني والعلمي...

[26] Abdelkader Guitoni Université Oujda. Développement des régions périphériques. Article Table rondeÂ : la voix de développement du Maroc.

العمل الجمعوي وضع بصمة جديدة ورؤية حديثة

العمل الجمعوي بالواحات له جذور عميقة فقد عرفت هذه الأوساط عملا جماعيا غنيا بكل مظاهر الخبرة والمعرفة وسيادة القانون. بل إن عمل الإنسان وليس معجزة الماء ما مكن من انبثاق الواحات[27] فالتنظيمات التقليدية الإجتماعية والإنتاجية والدينية يمكن أن تؤسس لعمل جمعوي متطور. فالعادة في الواحة هو التعاون والتطوع والتكافل والاتحاد من أجل مشاركة بناءة. فالواحة عمل جماعي جمعوي.

لكن إذا كان مضمون هذا العمل له ذلك العمق التاريخي فإنه في مظهره يعتبر حديث العهد وقد كان للظروف التي مر بها المغرب بالغ الأثر في تأخر ظهور العمل الجمعوي بهذه الجهات بحيث لم ينشئ المستعمر بواحات تافيلالت أي جمعية طبقا لقانون 1901 كما أن مرحلة ما بعد الاستقلال 1958-1973 و 1973-1984 لم تسمح بوجود مثل هذا العمل بشكل جيد. لصعوبة التعامل مع مفهوم السلطة لكن خلال العقدين الأخيرين نظرا للتغييرات التي عرفها الوضع الدولي والوطني والمحلي وللمفهوم الجديد للسلطة وضرورة إشراك المجتمع المدني مكن من انبثاق هذا العمل في هذه الأوساط .س وقد أثبتت التجارب في عدد من الدول النامية والمتقدمة على حد سواء العلاقة الوطيدة بين نجاح جهود التنمية وتطور العمل الأهلي وفاعليته[28]. كما أن رسالة العمل الجمعوي هو المساهمة في إيجاد الحلول لضمان المستقبل الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والبيئي المتوازن للواحات.

العمل الجمعوي بواحات الجرف

ظهر العمل الجمعوي بمنطقة الجرف منذ عقد ونصف من الزمان وتضم المنطقة 86 تنظيما للمجتمع المدني 3٪ منها فقط تنظيمات نسوية ويتكون في مجمله من 65 جمعية 14 تعاونية فلاحية 4 فروع جمعيات مهنية نقابية 2 فروع أحزاب ولجنة لحقوق الإنسان معدل تأسيسها 5,67/ سنة بالإضافة إلى ثلاث جماعات.

كما لازالت المنطقة تحافظ على التنظيمات العشائرية والقبلية والدينية والتنظيمات التقليدية للأنظمة الهدروفلاحية ويمكن تصنيف هذه التنظيمات إلى تنظيم شعبي يهتم أغلبه بالفلاحة وتنظيم نخبوي ينشط فيه رجال التعليم وتنظيم غير مستقل يتبع قطاعات حكومية.

أهداف العمل الجمعوي

من الانتظارات الآنية للعمل الجمعوي الواحي أن يصبح المخزون المائي والتجهيزات الهدروفلاحية بالواحة مؤهلة لمواجهة الجفاف والتغيرات المناخية. وأن تصبح هذه الموارد قادرة على تلبية الطلب وقت الوفرة والندرة.و تعمل الجمعيات على تغيير السلوك للساكنة من المنافسة السلبية والشرسة والخلافات القوية حول استغلال الماء إلى التعاون من أجل تدبير عقلاني لهذا المورد. وأن يندمج في المخططات المائية كل التنظيمات التقليدية وبرامج ومخططات القطاع الحكومي ومبادرات الجمعيات.

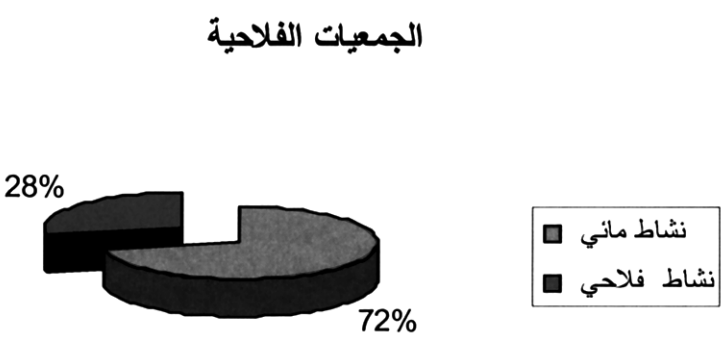

[27] A Bozaher .Note TechniqueÅ: Création d'oasis en Algérie .CIHEAM .Options Méditerranéennes P.325

[28] ناصر القحطاني ور جهات التمويل في دعم البناء المؤسسي للجمعيات الأهلية العاملة في مجال التنمية اللبشرية المظلة. العدد 27-28 .2002. ص.8 يّد

والهدف أيضا هو جعل العمل الجمعوي وسيلة من الوسائل لإحياء الحوار المسؤول، وخلق قنوات الاتصال بين السكان، في وقت تراجعت فيه حوارات القبيلة وانعقاد مجالسها، حتى تسترجع الواحة ذلك التخطيط المتواصل والمراجعة اليومية لجميع ملفات الواحة. هذا النشاط الذي كانت تؤديه مؤسسة القصر لضمان المستقبل الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والبيئي المتوازن للواحات.

مثل هذا التغيير لا يمكن أن يتم من خلال أمر من أعلى أو أن يولد في هذه الأوساط الشعبية، بل يحدث من خلال عملية تشاورية تشاركية تصحيحية لكل العلاقات التي تربط منظمات المجتمع المدني والقطاعات الحكومية، وأن ينفتح بعضها على بعض.
كما أن من أهداف الجمعيات حماية مدخول السكان وثقافتهم وتراثهم وتقويته لمواجهة الصعاب، مع الأخذ بالتقدم العلمي والكنولوجي. فواحات تافيلالت من الواحات الضاربة في عمق التاريخ. وهي تعتبر من واحات الألفيات، وقد كانت من الواحات المنفتحة تاريخيا على كل الحضارات ذلك الانفتاح الذي جعل منها معلمة حضارية واقتصادية في عصور كثيرة.

تجربة المكتب الجهو ي للاستثمار الفلاحي لتافيلالت في تطوير العمل الجمعوي

تعتبر مبادرة المكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي لتافيلالت من المبادرات الرائدة لتطوير العمل الجمعوي الشعبي والنخبوي على السواء. فقد كان من السباقين للاهتمام بهذا المجال، بحيث عمل لتأسيس الجمعيات المائية والتعاونيات الفلاحية وخلق أولى التعاونيات النسوية بالمنطقة، كما أنه بعقده لثلاث مناظرات لتفعيل العمل الجمعوي، وكذلك للمتابعات التي يقوم بهالفائدة هذه الجمعيات يساهم في تصحيح مساراتها، والدفع بها من أجل تطوير الواحة. ينضاف إلى هذا التكوين الذي تلقته الجمعيات المائية في إطار مشروعي التدبير التشاركي الممول من طرف الفد (FIDA)، ومشروع الوكالة اليبانية للتعاون الدولي. كما تعتبر

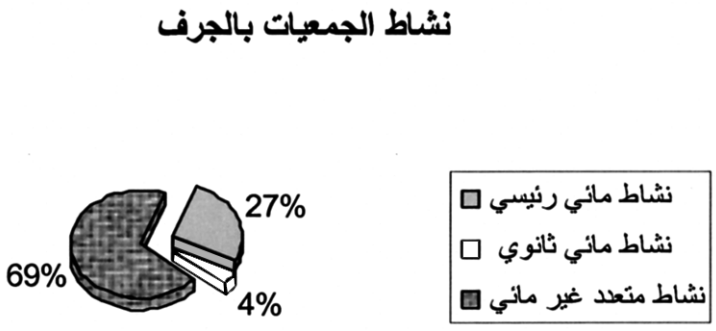

متابعات وكالة التنمية الاجتماعية للجمعيات المستفيدة من تمويلاتها للمشاريع نموذجا جيدا للتكوين الميداني لهذه الجمعيات. دون أن نغفل دور جمعية محاربة التصحر في متابعاتها المحلية والشبه يومية لتطوير العمل الجمعوي كما وكيفا، وجعله أساس نجاح برامجها لمكافحة التصحر وتنمية المنطقة.

مجالات تدخل الجمعيات ومنجزاتها

الواحات مجالات مزروعة ومجالات مسكونة ومناطق مراعي تحميها وتحافظعليها... والقطاع الفلاحي لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يشكل لوحده قاعدة التنمية المستديمة فمن الضروري العمل على تشجيع أنشطة اقتصادية جديدة[29]. والجمعيات الواحية في علاقاتها السوسيولوجية المتعددة والمتنوعة تستطيع أن تقوي أسس الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية التقليدية والعصرية وذلك ببعث القوانين والأعراف التقليدية والتربية المتوارثة وكذلك إيجاد الوسائل والامكانيات المتعددة للتطوير والعصرنة، وخلق الفرص المناسبة للتنمية المتزنة. ومن الملاحظ في هذه المرحلة أن مجال الماء عامة والماء الزراعي بصفة خاصة شكل أولى الأوليات بحيث وصلت نسبة التنظيمات المهتمة بالماء 23٪ من مجموع الجمعيات بمنطقة الجرف بلغت مواردها المالية الغير محلية دون احتساب المساعدات التقنية التي تلقتها حوالي 80٪ من مجموع موارد مشاريع هذه الجمعيات.

[29] الحوار الوطني حول إعداد التراب الوطني.خلاصات تركيبة للورشات المحلية حسب الجهات جهة مكناس تافيلالت.200.0 ص 63 هـ

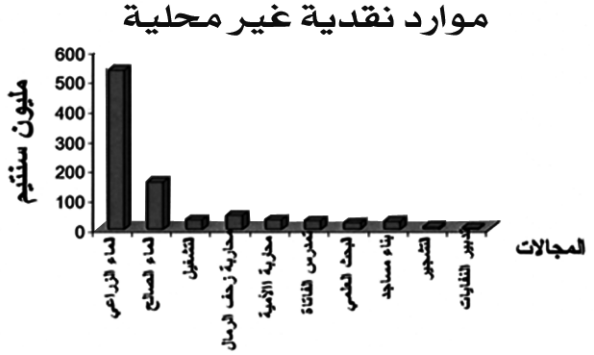

إنطلاقة مشجعة رغم بطئها

تعتبر أنشطة هذه الجمعيات دليلا مقنعا على الإدراك الواعي بمشاكل الواحة وانتفاضة من أجل المحافظة على مكونات هذا الوسط الواحي البيئية من ماء ونبات وسكن وثقافة وتنوع بيولوجي وغير بيولوجي فهذه التنظيمات ستكون محور وأساس كل عمل تنموي مستديم والوسيلة المثلى لتحقيق وتصحيح أو إعادة تأهيل وعقلنة التنمية البيئية السليمة في هذه الأوساط فالعمل الجمعوي هو قاطرة التنمية الشاملة[30]. كما أنها ستساعد الساكنة في استعادة التدبير الجيد للوفرة.س وأن تستطيع تخطي العقبات وتحتفظ بنمط زراعي قار ومتوازن حسب الفصول والوسائل المتوفرة[31] كما كان موروثا عن التنظيمات الواحية سابقا.

معيقات العمل الجمعوي بالواحات

إن تحليلنا لواقع هذه الجمعيات التي تواجه كل هذه المعيقات تجعلنا ندرك مدى صعوبة تحقيق قفزة تنموية.

فتطور الجمعيات يعرف أربعة مراحل :

- مرحلة التأسيس
- مرحلة إنجاز مشاريع
- مرحلة التمويل الذاتي
- مرحلة خلق فرص العمل الرسمية والدائمة

جل جمعيات منطقة الجرف في المرحلة الأولى وقليل منها يعرف انطلاقة خجولة في المرحلة الثانية كما أن التنمية ونوعية التغيير التي يمكن أن تحدثه في المجتمع تصنف إلى:

التنمية البطيئة الخجولة ← تغير عفوي عشوائي ارتجالي
التنمية السريعة المتهورة ← تغيير ثوري أو عبثي
والتنمية المتانية المتوازنة الحكيمة ← تغيير مخطط له

وباعتمادنا هذا التصنيف لازالت هذه الجمعيات في مرحلة التنمية الخجولة البطيئة. إن القطاع الثالث بالمنطقة يفتقر إلى الخبرة والمهنية والتأطير والتطوع والمشاركة القوية بالإضافة إلى التمويل والتكوين.

[30] أحمد السابك ابن جرير : العمل الجمعوي أي بعد تنموي لاتحاد الاشتراكي العدد 7025 5 نظ عن سهل الدعي-حفل ينج الي ظ اتحد بل ينج الجزة 02-03 كلية الاداب والعلوم الإنسانية مكناس.

[31] لحسن تاوشيخت : زواحة تافيلالت بين المس واليوم لمجال والمجتمع سلسلة الندوات كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس.العد6 .1993. ص 15

خاتمة

إن مواجهة تحديات الحاضر وامتلاك أسباب صناعة المستقبل ليست مواجهة سياسية أو اقتصادية فحسب، بل هي مواجهة شمولية متعددة الأبعاد. فهذا القطاع الثالث أساسي في التنمية المستديمة فهو قادر على تطوير الخبرة الواحية ودعم القدرات المحلية في مختلف مجالاتها لضمان الجودة في هذه الأوساط بشتى عناصرها والتي من بينها المحافظة على التنوع البيئي و حل الكثير من مشاكل الواحات المذكورة سالفا وأخرى متعلقة بمجهرية الضيعات وضرورة عصرنة التقنيات وتنظيم الاستغلال الهدروفلاحي بل هي تستطيع أن تساهم بشكل فعال في تثمين المنتوج والمحافظة على الجودة بما تخلقه

من وعي لدى الساكنة وما توفره من إمكانيات وموارد لكنها لن تستطيع الوصول إلى ذلك إلا إذا تلقت التكوين والتأطير والدعم المادي والقانوني والمعرفي الذي تستحقه وأصبحت مكانة القطاع الثالث مكان المنتج والمستثمر بفعالية ومهنية ومنافسة تخضع للمواصفات الدولية.

[32] .مصطفى المصمودي، نقلا عن صحيفة البيان الإماراتية، عدد يوم السبت 10 جمادي الأولى 1423 هـ الموافق 20 يوليو 2002. نقلا عن مركز التمييز للمنظمات غير الحكومية الجمعيات العربية في عالم المعلومات تصنيف الوثيقة معلومانية عدد 9-6 نونبر -2002